جوفروا (مسرعاً مضطرباً) أبتِ . . . أبي . . . (ينطرح على جثة ابيه) .

ايڤون يا للمصيبة الهائلة ! . . .

جوفروا ربّاه ! . . . قتلوه ! . . . أبي ، أسامعٌ صوتي ؟

موريس هذا الحذاء ! هذه القبعة . . . أعرفهما . . . هما لبورني ! نعم ! هما لبورني !

المركيز (ينهض قليلاً ، ويطوّق عنق ولده باحدى يديه ، ويجعل الاخرى على يد ايڤون ، ويتلفظ بتلجلج) نوربر ! . . . نوربر ! . . . (يستلقي الى الوراء) نوربر ! . . .

يُرخى الستار (له صلة)

بيروت

اخبارها وآثارها

للاب لويس شيخو اليسوعي (تابع)

القسم الثاني : البحث العاشر

النصرانيّة في بيروت بعد الفتح العثماني (١٥١٦—١٧١١)

كانت النصرانيّة في بيروت عند فتح السلطان سليم الاوّل لبلاد الشام في اسوا حال . وانّما كان بقي فيها عيال يسيرة من الروم الملكيين ومن الموارنة . لكلتا الطائفتين كنيستها

هذا ما خلا كنيسة الرهبان الفرنسيسيين وهي كنيسة المخلص التي سبق صالح ابن يحيى فقال عنها انّ الامراء بني الغرب احتلّوها وحوّلوها الى اسطبل وباعوها الى بني الاحمر ثمّ سكنها امراء الغرب الرامونيون . والظاهر انّ الرهبان الفرنسيسيين

لمّا عادوا الى بيروت في اوائل القرن الخامس عشر ابتاعوها وجدّدوا عمارتها فكان يتردّد اليها التجار الاوربيون لاسيما البنادقة والجنويّون

وكان للروم الملكيين في هذه الحقبة اساقفة في بيروت يتولّون شؤون امّتهم ذكرناهم في مقالة خاصّة في المشرق (٨ [١٩٠٥] : ١٩٧ــ١٩٩) نقلًا عن احد مخطوطات مكتبتنا الشرقيّة للمقدسي عبدالله طراد البيروتي وهذه اسماء الذين عُرفوا منهم : الاوّل يواكيم بن جمعة البيروتي دُبّر كرسي بيروت احدى عشرة سنة (١٥٣٢ــ١٥٤٣) ثمّ أُقيم بطريركاً انطاكيًا وتوفي في دمشق سنة ١٥٧٦ كان مائلًا الى الاتحاد مع طائفته برومية وكتب رسالةً الى اساقفته ينهاهم عن ان يدعوا الافرنج هراطقةً وعن الافتراء على البابا

الثاني اثناسيوس رئيس دير مار سمعان العجانبي الواقع في شرقي قرية بسارين شرطنهُ سلفهُ البطريرك يواكيم على كرسي بيروت فاقام في بيروت عدّة سنين ثم توفي

الثالث برثانيوس خوري قرية كسبا سمّنهُ على بيروت البطريرك يواكيم بن زيادة المتوفّى سنة ١٦٠٣ . اقام مدّة طويلة وتوفي في دير كفتون

الرابع يواكيم رئيس دير البلمند من قرية قطيفة خلف برثانيوس مشرطناً من البطريرك افتيميوس كرمه . توفي في بيروت بعد ان اقام مدّة

الخامس الخوري يواصف البيروتي شرطنهُ البطريرك افتيميوس الصافري المصوّر اقام عدّة سنين وتوفي في طرابلس

السادس الخوري فرح من قرية ايلات في بلاد عكّار شرطنهُ البطريرك سكاريوس ابن زعيم الحلبي ودُعي فيلبوس سنة ١٦٥١ . ومن آثاره انّهُ انشأ مكتبةً عربيّة في قلّاية مطرنيّة بيروت واقام زمناً طويلًا وتوفي في بيروت . وقد وقّع سنة ١٦٧٣ على تقنيد وجّههُ البطريرك نارفيطوس ضدّ اشياع كلونيوس كما ورد في كتاب ثبات الايمان لأرنولد (Perpétuité de la Foi, *Migne II, 1248-1257*)

السابع مكاريوس شمعة من رهبان مار الياس المحيته واصلهُ من بكفيّا في زمن قنصليّة ابي نوفل الخازن على بيروت . شرطنهُ البطريرك المستعفي نافيطوس في طرابلس توفي في بيروت

الثامن سلبستروس البيروتي من بيت الدهّان كان رئيساً على دير مار الياس المحيته

شرطنهُ البطريرك كيرلس الخامس سنة ١٦٨٠ كان احد مشيخي الرهبانيَّة الحنَّاويَّة الشويريَّة وكان كاثوليكيًّا غيورًا توفي سنة ١٧١٣

هذا ما وقفنا عليهِ من اسماء اساقفة الروم الملكيين في بيروت في القرنين السادس عشر والسابع عشر . امَّا اخبارهم واعمالهم فلا نعرف منها شيئاً الَّا انَّهم كانوا مقيمين في بيروت

امَّا اساقفة بيروت الموارنة فلم يذكر منهم البطريرك الدويهي في تاريخهِ سوى ثلاثة اساقفة الاوَّل يوسف (ص ١٧٥) الذي سامهُ البطريرك ميخائيل الرزي على بيروت سنة ١٥٧٧ . والثاني يوسف الشامي (ص ٢٥٢) سامهُ البطريرك الدويهي على بيروت في ٢٧ ك ٢ سنة ١٦٩١ وتوفي سنة ١٧١٥ . وكان هذا الاسقف استعفى فاقام الدويهي اسقفاً على بيروت جرجس خيرالله اسطفان القوسطاوي مؤسس دير عين ورقة سنة ١٦٩٨ قبل وفاة سلفهِ . توفي سنة ١٧٣٣

ولم يُقم هؤلاء الاساقفة في بيروت وكانوا كمعظم اساقفة الموارنة ما خلا قبرس وحلب يقيمون بجوار البطريرك في قنوبين ولعلهم كانوا يزورون رعاياهم من وقت الى آخر

امَّا الرهبان الفرنسيسيّون فكان ديرهم في بيروت عامرًا يُعنَون خصوصاً بخدمة الفرنج المستوطنين في المدينة للتجارة . وفي اخبار الرهبانيَّة الفرنسيسيَّة انَّ عددهم بلغ الى ثمانية رهبان . وكان ديرهم منوطاً برؤساء الاراضي المقدَّسة في القدس الشريف . وقد ذكر الدويهي (ص ١٤٦) من رؤسائهم على دير بيروت الاب بطرس الفلورنسي الذي على يدهِ طلب البطريرك شمعون الحدثي التثبيت من البابا لاون العاشر سنة ١٥١٣

والشهيرُ منهُ الاب فرنسيس سوريانو الذي ترأس على جميع الاراضي المقدَّسة مرتين سنة ١٤٩٣ و ١٥١٢ . وصار رئيساً على دير بيروت دفعتين ايضاً سنة ١٤٨٠ و١٥١٤ وقال الدويهي في تاريخهِ انهُ لمَّا انتهت ايَّام رئاسته على بيروت سنة ١٥١٥ رجع الى بلادهِ (ص ١٤٧) . وكان هذا الاب قد تعيَّن من الحبر الاعظم كقاصد رسولي لدى الموارنة فشيد للموارنة تمسُّكهم بالامانة المستقيمة

وقد وقفنا على كتابهِ الذي الَّفهُ عن الاراضي المقدَّسة وعن الشرق (Trattato

(di Terra Santa e dell'Oriente) وقد نشره حضرة الاب غرلوبوقتش سنة ١٩٠٠ في ميلانو وفيه كلام واسع عن بيروت ومرافقها . وذكر فيها ما عدا كنيسة المخلص كنيستين اخريين شرقي المدينة خارجاً عنها الواحدة على اسم الشهيدة القديسة بربارا وقد اطنب في اكرام اهل بيروت لقاءها وذكر عجائبها مع المسلمين والنصارى (ص ١٦٢) وانما انتزع المسلمون هذه الكنيسة من النصارى واتخذوها جامعاً باد اثره مع مدى الزمان. والاخرى كنيسة القديس جرجس المعروفة اليوم بجامع الخضر (ص ١٦٢ — ١٦٣)

اما كنيسة المخلص فقد اتسع الاب سوريانو في وصفها (ص ١٥٦ — ١٦١) وعدد الآيات التي كانت تجري فيها . من جملتها اعجوبة سببت ارتداد كثيرين من المسلمين الى النصرانية اذ تفجرت نيران من اخدود بقرب تلك الكنيسة بفعل احد المغاربة الباحث عن الكنوز فالتهمت شخصين نزلا الاخدود طمعاً بالكنوز فبقي الشخصان ميتين في الاخدود ولم يستطع احد اطفاء النار واستخراج الجثتين الى ان دُعي رهبان الدير فرشّوا الماء المصلّى واطفأوها واستخرجوا الجثتين فدُفنتا . هذا ما رواهُ الاب سوريانو ولم نجد له ذكراً في غير كتابه والله اعلم

ولما كانت السنة ١٥٧١ حارب السلطان سليم الثاني البنادقة وانتزع من يدهم جزيرة قبرس فطُرد البنادقة من مدن تركيا ونُفي الرهبان الفرنسيسيون بسببهم من بيروت وحوّل المسلمون كنيستهم الى جامع يُعرف اليوم بجامع السراية لقربه منها . ولما رجع الرهبان الفرنسيسيون الى المدينة بعد عدة سنين سكنوا في محل آخر قريباً من الميناء عند سوق البياطرة ثبتوا فيه الى السنة ١٨٨٣ فانتقلوا الى ديرهم الجديد

ومن احتل بيروت من الرهبان في القرن السابع عشر الآباء المرسلون الكبوشيون فتح ديرهم سنة ١٦٢٦ الاب ادريان دي لابروس (Adrien de la Brosse) . اما اليسوعيون فلم يكن لهم دير في بيروت وانما كانوا يسكنون دمشق وطرابلس وصيدا ويقصدون بيروت لإقامة بعض الاعمال التقوية كالوعظ والارشاد . وكانوا ضيوفاً على الآباء الكبوشيين وفي ديرهم توفي احد رؤسائهم الاب جان اميو (J. Amieu) في ٦ ت ٢ سنة ١٦٥٣ فدُفن عند باب كنيسة مار جرجس الروم

فكان وجود هؤلاء الرهبان المرسلين في بيروت باعثاً لنمو روح التدين بين الكاثوليك ولارتداد قسم من الروم الاورثدكس الى الكثلكة

ومما زاد في ازدهار النصرانيَّة في بيروت في القرنين السادس والسابع عشر تولي فخر الدين المعني على سواحل الشام فان هذا الامير كما سبق القول كان محبًّا للنصارى وبين حاشيته قومٌ منهم . واذ خصَّ بيروت بعنايته واهتمَّ بتحسينها وترويج اعمالها رغب المسيحيين في سكناها فكانوا يقصدونها من لبنان ومن داخليَّة البلاد فراجت بهم الصناعة والتجارة . قال الدويهي في تاريخه (٢٠٥)

«وفي ايام فخر الدين ارتفعت رؤوس النصارى وعمَّروا الكنائس وركبوا الخيل ولفُّوا شاشات بيضًا وكرورًا ولبسوا طوامين(١ وزنانير مسقطة وحملوا القسيّ والبنادق المجوهرة . وقدم المرسلون الفرنج وسكنوا الجبل وكان اكثر عسكره من النصارى ومدبّروهُ وخدَمهُ وارنة »

بل ذهب البعض بانَّ الامير فخر الدين تدَّين بالنصرانيَّة . روى ذلك الاب هيلار دي برانتون (٢ قال « انَّ الامير أُصيب بمرض عضال فعُني باسره الاب الكبوشي ادريان دي لابروس لشفاهُ فتنصَّر واعتمد سرًّا من يدهِ وذلك سنة ١٦٣٣م . واخبر انهُ لمَّا قبض عليه الاتراك واخذوه اسيرًا الى الاستانة وحُكم عليه بالموت تدرَّع باشارة الصليب فقُتل ككافر (١٦٣٥م) . وقد نشر سابقًا في المشرق (١٨ [٩١٢٠]: ٥٤٥ــ٥٤٦) جناب الكاتب المدقق عيسى افندي اسكندر المعلوف كتابًا للمطران يوحنا الحصروني كتبهُ الى الامير يؤيد فيهِ رأي تنصُّرهِ نقلهُ حضرة الاب قسطنطين الباشا عن سجلَّات مدينة فلورنسة (تحت رقم ٢٤٧٦)

وقد تعزَّزت النصرانيَّة في بيروت في القرن السابع عشر باقامة قناصل وطنيين لفرنسة في ثغرها . وكان اوَّل من نال هذا الامتياز الشيخ ابو نوفل نادر الخازن سنة ١٦٦٢ بواسطة المطران اسحق الشدراوي الذي رحل الى باريس (٣ ونال هذه الرتبة من مكارم الملك لويس الرابع عشر وقد ساعدهُ المرسلون اليسوعيّون لنوال النعمة المطلوبة بثنائهم على ابي نوفل . فتولى هذا رتبتهُ السامية الى سنة وفاته ١٦٧٩ . ثم خلفهُ في منصبه ابنهُ الشيخ ابو قانصوه فيَّاض بن نادر فتوفي سنة ١٦٩٦ . ثمَّ حفيدهُ

---

١) الكرور مناديل شاش . الطوامين جمع طومان لفظة تركية معناها السراويل الواسعة

2) Hilaire de Baranton: La France Catholique en Orient, p.159-164

٣) اطلب تفاصيل رحلته في المشرق (٢ [١٨٩٩]: ١٣٩-١٤٤)

الشيخ حصن بن فيّاض الخازن تولى تدبير قنصليّة فرنسة من السنة ١٦٩٧ الى موته سنة ١٧٠٧ . فتبعهُ في منصبه ابنهُ الشيخ نوفل بن حصن سنة ١٧٠٨ فطالت مدّتهُ الى ١٧٥٣ وفيها كانت وفاتهُ

فكانت رتبة القنصليّة الممنوحة لاحد اعيان النصارى الوطنيين مع امتيازاتها وحقوقها وتأييدها من الباب العالي من اعظم الاسباب لعلوّ شأن النصرانيّة في بيروت . ويدلُّ على ذلك فرمان همايوني منحهُ السلطان سليم الثاني ابا نوفل يحيل الى عهدته مقاطعات كسروان وبكفيّا وغزير (الدويهي ٢٤٢ــ٢٤٣) وارسل اليه البابا اقليمس العاشر براءة يثني فيها على همّته وتقاه (الدويهي ٢٤٣) وكان البابا اسكندر السابع سبق واكرم عليه «بكاثيليّة رومية وبأن يتقلّد طرقاً وسيفاً ويستعمل مهامز من ذهب» (الدويهي ٢٤٧) . وقد ذكر الرحّالة الفرنساوي دي لاروك انّ ابا نوفل كتب تاريخ الامير فخر الدين ممن وما جرى في ايّامه من الحوادث . وهو اثر جليل طمستهُ الدهر

وقد نشر المرحوم رشيد الشرتوني (ص ٢٤٦ من تاريخ الدويهي) رسالة للسفير الفرنسوي لدى الباب العالي المركيز دي نوانتل وجّهها الى ابي نوفل والى امير درعون نسيبه يمدحهما فيها ويشكرهما على حُسن عنايتهما بالمرسلين اليسوعيين

وممّا وقع في بيروت مدّة الحقبة التي نحن في صددها من الاحداث المؤلمة استيلاء اهل المدينة المسلمين سنة ١٥٧٠ على كنيسة الموارنة التي في ضمن سورها اغتصبوها وجعلوها قيصريّة قال الدويهي (ص ٢٠٣) :

«فلم يبق للطائفة الّا كنيسة مار جرجس خارج المدينة فاجتمع ابو منصور يوسف بن حبيش مع مشايخ بيت الدعمان (الاورتوكس) واتفقوا على ان تشترك طائفة الروم وطائفة الموارنة في كنيسة مار جرجس التي للموارنة خارج بيروت . وفي كنيسة السيدة التي للملكيّة داخل المدينة »

اما كنيسة مار جرجس المذكورة هنا فكانت قريبة من نهر بيروت في المكان الذي يروي التقليد قتل مار جرجس للتنين . بقيت في ايدي الموارنة الى السنة ١٦٦١ وفيها تعدّى علي باشا الدفتردار على هذه الكنيسة فاخذها وجعلها جامعاً (الدويهي ٢٣٦) يُعرف في يومنا بجامع الخضر

هذا غاية ما عرفنا من احوال النصرانيّة في بيروت في هذه المدّة (لها بقيّة)